فلسفة سبنسر

للاستاذ زكي نجيب محمود

- ٢ -

تطور الحياة

يبدأ سبنسر كتابه عن تطور الحياة بتعريف الحياة نفسها بانها التوفيق بين الكائن الحي وبيئته ، ويتوقف كمالها على كمال هذا التوفيق . فهذا حيوان يكتسي بالفراء ليتقي لذعة البرد ، وذلك قد أعد لاختزان الطعام لما عساه أن يصادفه من قحط وإجداب ، وثالث يستطيع أن يتلون بلون الارض التي يدب فوقها حتى لا يبصره العدو فيفتك به ، الى آخر هذه الوسائل التي زودت بها الطبيعة الأحياء ، أو بعبارة أصح ، التي قسرها الأحياء قسراً على أن تزودهم بها للذود عن حياتهم ، مما يعلم القراء جميعا . وبديهي أن هذه الملاءمة لم تبلغ ولن تبلغ درجة الكمال ما دام الحيوان مخلوقا ناقصاً يعتريه الضعف والموت ، ولكن مهما يكن من أمر فهو دائب لا يني عن السعي الحثيث في زيادة هذه الملاءمة شيئاً فشيئاً ، بان يكمل هذا النقص تارة وذاك طوراً ، وينقح من أعضائه حتى تتمكن من مجاوبة الطبيعة ومقاومتها ؛ ومعنى ذلك أن الكائن الحي يشعر بالحاجة أولا ثم ينطلق في سعيه جيلا بعد جيل يستمد من الطبيعة عضواً يسد له ما أحس من نقص ، فهو مثلا يشعر بحاجته الى النظر لكي يتبين ما يحيط به في دقة ووضوح فيكون لنفسه على مر الدهر عضواً للابصار ، وهكذا قل في سائر الاعضاء .

وليست الحياة الا هذا التوفيق الذي لا تنقطع أسبابه ، ولا تقتصر هذه المحاولة على أفراد الحيوان ، بل تعدوها الى الانواع ، اذ يسعى كل نوع باعتباره كلا الى الملاءمة بينه وبين البيئة . ويرى سبنسر توافقا عجيبا بين تكاثر الحيوان وما يحيط به من الظروف الطبيعية ، فهو يرى أن الأصل في التناسل هو تخلص الكائن الحي من زيادة في حجمه لا تناسب مع جهازه الهضمي ، أي أن كتلة الكائن الحي اذا اطردت في النمو ، تصل الى حد لا تستطيع معه المعدة أن تسد حاجتها في الغذاء ، وعندئذ يضطر الحيوان الى أن يقف نموه عند حد معين ، وكل زيادة تجيء بعد ذلك يتخلص منها بان يخرجها نسلا . وتطبيق ذلك ، أن الانسان ، ذكراً كان أم أنثى ، يأخذ جسمه في النمو الى حد محدود ثم يقف نموه اذا ماجاءت مرحلة التناسل ، ولذا نرى أن عدد النسل يتناسب تناسباً عكسيا مع درجة النمو ، فكلما كبر حجم الحيوان كان نسله أقل عدداً ، فبينما تنسل الذبابة مثلا عشرات الذباب لايلد الفيل الا واحداً . كذلك يتناسب عدد النسل مع مقدرة الحيوان على مقابلة الاخطار . فان كان ضعيفا عاجزاً عن صد ما يتهدده من الكوارث لجأ الى كثرة النسل ليعوض فناء أفراده الناشيء من ضعف المقاومة والا تلاشى النوع . والعكس صحيح ، أي اذا كان النوع قادرا على الاحتفاظ ببقائه ، وجبت قلة النسل ، والارجحت كثرة العدد على كمية الطعام . ومعنى ذلك بعبارة أخرى انه كلما ارتقى النوع في سلم الحياة ، كان أقدر على الاحتفاظ بوجوده ، وكان بالتالي قليل النسل . وهذه القاعدة صحيحة الى حد كبير حتى في الافراد ، اي اذا ارتقى الفرد في عقليته وذكائه كان أقل نسلا . ومما هو جدير بالذكر انه كلما ازدادت عند الفرد كمية الاستهلاك العقلي اي التفكير ، قل عدد النسل أو انعدم . ولعل ألمع آية لذلك عقم الفلاسفة . وقد يشير هذا الدليل الى ان الانسانية تسير في تطورها نحو مرحلة تزيد فيها القوة العقلية ويقل عدد النسل .

وعلى الرغم من ان الطبيعة ساهرة على هذا التوفيق بين نسبة التناسل وحاجة النوع . فقد يظهر انها أخطأت الحساب ومالت نحو الاكثار من السكان ، بغض النظر عن كمية الغذاء ، وحق للمتوس

الشرق ، وشكسبير وروسو وهوجو في الغرب . أما إذا كان موضوعه مصبوغا بصبغة البيئة وألوان المكان وأغراض الشعوب والاجناس فهو خالد في حدود من يصورهم ويتحدث بلسانهم . ومن أمثلته بعض أدب حافظ وشوقي مما يغذي الوطنية في مصر ، ورديارد كبلنج في انجلترا ، وجميع الآداب القومية التي نعتز بها اليوم كل شعب . وليس يعني هذا التفاوت في سعة النفوذ تفضيلا في الرتبة بين خلود وآخر ، لان الاديب قد ينتج النوعين وينبغ في الناحيتين معا ، ولكنه يقال كقاعدة عامة في هذا العصر الذي أصبحت القومية روح وجوده أنه لا بد لكل شعب من أدباء قوميين يغذونه بالادب الرفيع الخالد ؟

محمد ضياء الدين الريس

(الرسالة) لاتتحمل الرسالة بالطبع تبعة ما تنشره من الآراء مادامت مذيلة بأسماء كاتبيها

ان يجهر بدعوته الى ضبط النسل لما لاحظه من زيادة السكان على موادالغذاء.

تطور المجتمع

ليست دراسة الاجتماع باليسيرة الممهدة ، بل يعترض سبيلها من العقبات والصعاب مالا يستطيع التغلب عليها الا الافذاذ الفحول ، فقد حدث مرة ان ارتحل رجل فرنسي الى انجلترا يقضي بأرضها بعض الوقت ترويحا للنفس وحبا للاستطلاع فلم يكد ينقضي على اقامته بها أسابيع ثلاثة حتى اعتزم ان يصدر كتابا عن انجلترا ، اذ خيل اليه انه قد درس شعبها فأتقن الدراسة ، فلما انقضت شهور ثلاثة ، هم بوضع كتابه ، ولكنه أدرك أنه لم يتقن الدراسة بعد بحيث يستطيع ان يخرج الكتاب الذي يريد ، وآثر الروية والأناة ، فلما انقضت سنوات ثلاث ، اتسع شعوره بالعجز والقصور ، وأيقن أنه لا يعلم من موضوعه شيئا ... وهذا صحيح ، فقد يخيل للانسان للوهلة الأولى ان دراسة المجتمع سهلة ميسورة ، ولكنه كلما ازداد علما بدقائقه ، ازداد يقينا بجهله وعجزه

فما بالك بالجهود التي بذلها سبنسر ، وهو لا يريد أن يدرس شعبا بعينه فحسب ، بل يقصد الى دراسة المجتمع الانساني بأسره وكيف تطور كيانه من حالة الى حالة ؟ فهو يرى ان المجتمع كائن عضوي له أعضاء للتغذية وله دورة دموية ، وفيه تعاون بين الاعضاء ، وله فوق ذلك تناسل وافراز ، شأنه في كل ألوان الحياة شأن الافراد سواء بسواء ... فهو ينمو ، وكلما ازداد نموه اشتد تعقدا ، وكلما تعقد ازدادت اجزاؤه استقلالا . وحياة المجتمع باعتباره كلا طويلة جدا بالنسبة الى حياة اجزائه التي يتألف منها . والمجتمع كالفرد يتعاوره التكوين والانحلال ، هما وجها التطور : فنمو الوحدة السياسية من الاسرة الى الدولة ثم الى عصبة الأمم ، ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المنزلية الصغيرة الى نظام الشركات ثم الى الاحتكار ، ونمو وحدة السكان من القرية الى المدينة ... كل هذه ظواهر للتجمع والتكوين ، ولكنك من جهة اخرى ترى تقسيم العمل وتعدد المهن والصناعات ، وتنوع الانتاج بين الريف والمدن ، وبين أمة وأمة ... وهي دلائل تشير الى التنوع والتنافر .. وتستطيع كذلك أن تلمس التطور بشطريه — تآلف الاجزاء في وحدة ، ثم تنافرها داخل تلك الوحدة — في كل جانب من جوانب المجتمع : في الدين والحكومة والعلم والفن وغيرها

فقد كان الدين أول الأمر عبادة طائفة من الآلهة والأرواح ، فأخذت هذه تتجمع وتأتلف حتى تركزت في إله واحد .. ثم عاد التوحيد فتفرع الى جملة من الاديان وطائفة من العقائد ، ولم يتحور الدين في شكله فقط ، بل تبدل موقعه من النفوس كذلك . فقد كان المحور الذي تدور حوله رحى الحياة بأسرها ، ذلك لانه ألقى في روع الانسان الأول ان هذه الحياة الدنيا غرور ولهو ، ويجب أن يربأ بنفسه أن تنغمس في حمأتها أو تتلوث بادرانها ولكن الآخرة وحدها محط آماله ومعقد لأمانيه ، فهي خير من الأولى وأبقى ، ولكن ما لبثت وجهة النظر أن تطورت ، وتوجه الانسان بشطر من عنايته نحو هذه الحياة التي يعيش فيها . واخذت تلك العناية تزداد شيئا فشيئا كلما اتسع نطاق العمل الصناعي.

أما نظام المجتمع فلعل أبلغ ماطرأ عليه من تغيير ، هو الانتقال التدريجي من النظام الحربي الذي ساد أوربا إبان العصور الوسطى الى النظام الاقتصادي الصناعي ، ويعتقد سبنسر أن تقسيم الحكومات الى ملكية وأرستقراطية وديموقراطية وما الى ذلك ، ان هو الا عرض تافه لا يمس الجوهر والصميم ، وأما الحد الفاصل الذي يميز دولة من دولة ، فهو أساس بنائها الاجتماعي . هل يقوم على النزعة الحربية أم يصطبغ بصبغة الصناعة ، وبعبارة أخرى تنقسم نظم الاجتماع نوعين : جماعة تعيش من أجل النزال والقتال ، كما كانت الحال في نظام الاقطاع ، وجماعة لا تجد في الحياة هدفا تتجه صوبه وتحيا به ومن أجله سوى العمل ، فتلك تحارب من أجل الحياة ، وهذه تعمل من أجل الحياة .

وللدولة الحربية صفات تلازمها ، منها ان السلطة تتركز في قبضة الحكومة وحدها ، ويغلب أن تكون حكومة ملكية لا تدخر وسعا للتفريق بين أفراد الشعب الواحد الى طبقات بعضها فوق بعض ، فتكون الحرب والفروسية صناعة الأشراف ، وللسوقة الصناعة وفلاحة الأرض ... كذلك تعظم في الدولة الحربية سيطرة الرجل في الاسرة ، ذلك لأن الرجال هم عماد الحروب ، وأين منزلة الرجل في حومة الوغى من منزلة المرأة قابعة في عقر دارها ؟ ! ويمقت سبنسر هذا الضرب من الاجتماع الذي تدور حياته حول قطب الحرب ، لأن مصلحة الفرد تذوب

وتتلاشى فى صالح المجموع ، ولأن الدولة لاتقوم الا على القتل والسرقة ، ونحن ان كنا نصم الانسان الاول بالوحشية لأنه كان يلتهم لحوم البشر ، فأحدرنا أن نزدرى هذه الدول التى تأكل شعوبا بأسرها فى وجبة واحدة ! ويعتقد سبنسر ان رقى الانسانية مرهون بالغاء الحروب ، وهو لايرى سبيلا لتحقيق هذا المثل الأعلى سوى أن تقطع الامم شوطا بعيدا فى الصناعة لأنها تعمل على المساواة والسلام ، وهى تقسم السلطة بين أعضاء المجتمع جميعا ولا تركزها فى ايدى الحكومة وحدها ، وفضلا عن ذلك فهى تشحذ العقول وتدفعها الى الابتكار ، وهو المعول الهدام الذى يكفل لنا تحطيم التقاليد الوراثية التى تقوى من شوكة الحكومة . . . وستصبح الوطنية فى ظل الصناعة حبا للوطن لا كراهية الأوطان الأخرى ، ثم اذا اطرد نموها ، فستؤدى حتما الى ازالة الحواجز الجمركية التى تفصل الدول بعضها عن بعض ، وعندئذ تورق دوحة السلام وتمتد فروعها حتى يتفيأ ظلها أبناء الانسانية جميعا . . . واذا ماخفقت راية السلام وامحت الحروب ، زالت دولة الرجل ، ولايعود له فى أسرته سلطة الحجاج التى ينعم بها ، ويرتفع قدر المرأة حتى تقف معه كتفا الى كتف ، لتشابه ما يؤديان من عمل ، وعندئذ فقط يتحقق تحرير المرأة الذى تنشده .

ولما كانت الصناعة تستقى ماء حياتها من العلوم فلا ريب فى أن تقدمها وانتشارها ينتجان تربية التفكير العلمى وصحة الاستنتاج للاسباب والمسببات ، ولن يلجأ الانسان بعدئذ الى قوى الطبيعة الخارقة والابالسة والشياطين يعلل بها أحداث الحياة . . . وفوق هذا كله سينقلب التاريخ رأسا على عقب ، فستزدهر صحائفه بذكر الرجال العاملين بدلا من الملوك المحاربين ، وسيفسح فى مجاله للمخترعات والافكار . . . سيزداد الشعب سلطانا وقوة ، وتتقلص سطوة الحكومة وتتكمش ، وسيبطل ذلك الوهم العتيق البالى الذى يفرض على الفرد أن يحيا من أجل دولته ، وأن يضحى بنفسه فى سبيلها ، وسيعلم الناس حتما ان الدولة انما وجدت وانشئت لصالح الفرد ، وان كان هذا هكذا فلا يجوز أن تضحى الحياة من أجل العمل ، بل يجب أن يكون العمل اداة تستغلها الحياة فى تحقيق السعادة والهناء .

زكى نجيب محمود

على أى أساس نشيد مبادىء الاخلاق ؟ وبأى مقياس نزن الخير والشر ؟ أما سبنسر وأتباعه فلا يترددون لحظة فى اخضاع الاخلاق ، كأى شىء آخر ، الى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة ، وبعبارة أخرى يريدون أن نلقى بزمام الانسان فى يد الطبيعة نفسها تختار من أخلاقه ما تشاء . وقد ناهضهم طائفة كبيرة من العلماء والكتاب ، يربأون بأخلاقنا التى تراضع المجتمع عليها أجيالا متعاقبة . أن توضع بين مطرقة الطبيعة وسندان التطور ، يفعلان بها كيف شاء لهما الهوى وفى ذلك يقول هكسلى : إن علم الحياة لا يصلح دليلا خلقيا بأية حال من الاحوال ، اذ كيف نترك مصيرنا فى كف الطبيعة العمياء ، وهى كما قال عنها تنسون الشاعر الانجليزى « ملطخة بالدماء نابا ومخلبا » ! ! نعم ، كيف نذر الطبيعة تصب فى قوالبها ما يطيب لها من أخلاق وهى كثيرا ما تمجد الوحشية والمكر والخداع وتمقت الرحمة والعدل والحب ؟ !

ولكن تحدث بهذا المنطق لغير سبنسر ! لابد أن تخضع مبادىء الأخلاق للانتخاب الطبيعى وتنازع البقاء ، وليبق من أخلاقنا ما يصمد لهذه التجربة القاسية ، وليفن منها ما تذروه هذه الريح العاصفة . . . الأخلاق — كأى شىء آخر — تعود على الانسان بالخير أو بالشر بمقدار ما تساوق أغراض الحياة « والخلق السامى هو ذلك الذى يسير مع الحياة ويشاطرها فيما ترمى اليه » فلنقبل من الأخلاق ما يلائم الحياة ، ولنرفض منها ما يعترض سبيلها ومجراها ، أو بعبارة أخرى يجب أن تكون الأخلاق بحيث تعاون الفرد على البقاء فى مضطرب الأهواء المختلفة المتنازعة التى تصدر من أعضاء المجتمع . ولما كانت هذه الملاءمة بين الفرد والمجتمع تختلف باختلاف الزمان والمكان ، كانت بالتالى فكرة الخير تختلف عند الشعوب أوسع اختلاف . ويرى سبنسر أن الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الطيب من الخبيث ، وهو مقياس السرور والالم ، فاذا صادف سلوكنا من أنفسنا ارتياحا ورضى ، كان ذلك دليلا على ملاءمته للحياة الكاملة ، لان ذلك الاطمئنان الباطنى علامة على أن الطبيعة قد اختارت ذلك السلوك ليكون سبيلا الى حفظ الحياة . فأنت تستطيع اذن أن تفرق بين الخير والشر ، بما يبعثه العمل المعين من سرور أو الم لأنهما دليل ساقته الطبيعة نفسها للتفريق بين هذا وذاك .

نعلم مما تقدم أن الاخلاق يختلف لونها باختلاف البيئة الطبيعية أو الاجتماعية ، لأن الأولى صدى الثانية وانعكاسها ، ولما كان نظام المجتمع فى العصور الوسطى أخذ يتطور فى كثير من أسسه وقواعده ،

كان حتما أن ينشأ عن هذا التحوير انقلاب فى فكرة الاخلاق . فقد كانت أكاليل المجد والفخار لاتعرف موضعا غير هامة الفرسان المقاتلين ، فأما هؤلاء الذين يقضون نهارهم فى الزراعة والصناعة فعبيد أرقاء حقت عليهم الذلة والهوان ، ولكن وجهة النظر أخذت تتطور منذ حلت الصناعة ورسخت قدمها ، لانها تعتمد كما قدمنا على القوة العقلية ، فأضحى العمل أشرف ما يمارسه الانسان . لأنه عماد المجتمع وسنده ... ولما كان هذا العمل لاينمو ولا يستقيم الا تحت ظل العدالة ، وهذه بدورها لاتورق أو تزدهر الا فى جو من الحرية ؛ كانت هذه الحرية اول واجب فى عنق الدولة ، وقد عرف سبنسر العدالة بأن : « كل إنسان حر فى ان يفعل مايشاء ، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع حرية إنسان آخر له ماله من حقوق » . ولا يستقيم هذا النص مع نزعة الحرب ، لانها تعبد سلطان القوة وتفرض الطاعة العمياء ، ولكنه شرط أساسى لنجاح الصناعة لانها تعتمد على السلام والحرية فى الرأى والابتكار .

تلك هى حقوق الانسان الاساسية عند سبنسر . حق الحياة وحق الحرية ، فأما شكل الحكومة فلا يقيم له وزنا ، فلتكن ملكية مطلقة أو دستورية أو ماشئت من نظم ، فالناس لها ما دمنا نتمتع بالحرية والحياة ؟ وفى هذا يسخر سبنسر من النساء اللاتى يلححن فى طلب الحقوق السياسية ، لانها فى رأيه وهم باطل لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فضلا عن أنه يتوجس من المرأة خيفة ان هى وثبت الى مقاعد النيابة والحكم ، اذ يخشى ان تدفعها غريزة الايثار الى تقوية الضعيف الذى يجب أن يترك للطبيعة تسحقه : فلا تذر من الاحياء غير الاقوياء ؛ نعم يجب أن تتحكم الأنانية وان تظل أساسا لاعمالنا بحيث لا تلين لعاطفة الايثار ، فهى أسبق منه الى الوجود ، وهى أصلح للحياة والبقاء .... وهل الايثار الا أثرة فى لبه وصميمه ! أليست الابوة حباً صريحا للنفس ؟ والوطنية ما هى ؟ ألا تراها أثرة مجسمة ؟ فأنت لا تنتصر لهذه البقعة من الارض الا لانك تعيش بين أرجائها !

وخلاصة الرأى عند سبنسر أن المثل الاعلى للاخلاق هو مزيج متزن بين الاثرة والايثار — الايثار الذى يشبع الانانية ويغذوها .

زكى نجيب محمود

فى تاريخ الادب العربى المصرى

ابن قلاقس

٥٣٢ — ٥٦٧ هـ (١١٣٨ — ١١٧٢ م)

— ١ —

فى ثغر الاسكندرية ، مهبط الوداع واللقاء . حيث تجلب السفن قوما وتذهب بآخرين ، وتحمل أناسا إلى أوطانهم ، بينما تذهب بغيرهم إلى بلاد غير بلادهم وآل غير آلهم ، وحيث البحر الأبيض يحمل عباب السفن ، مهتدية بمنار الثغر ، فتحط إليه أو ترحل عنه ، وفى رابع ربيع الآخر عام اثنين وثلاثين وخمسمائة ولد لعبد الله بن مخلوف بن على ولد سماه نصر الله ، وكناه أبا الفتوح ، ولقبه الناس بعد ذلك بالقاضى الاعز ، وشهر فى كتب الادب بابن قلاقس ، وأرجح مانراه سببا لكنيته الاخيرة أن أحد الاجداد فى عمود نسبه يسمى بقلاقس ، فحمل حفيده الشاعر النسبة إليه ، (وقلاقس بقافين . الاولى مفتوحة والثانية مكسورة جمع قلقاس ، وهو معروف) ولسنا ندرى السبب الذى من أجله سمى جده بهذا الاسم .

ولد هذا الطفل الذى كان على مايظهر نحيفا ضئيل الجسم ، وظلت صفة النحافة ملازمة له ، لم تبرحه طوال حياته حتى قال حينما كبر يحدثنا أن ضآلة الجسم لاتحول بينه وبين العلا :

جوهر المرء نفسه وبها الفضـ ـل ، وما غير ذاك فهو فضول
والصغير الحقير يسمو به السـ ـير فيعنو له الكبير الجليـــل
فرزن البيدق التنقل حتى انـ ـحط عنه فى قيمة الدست فيل

ويروى بعض الرواة أنه لم تكن له لحية ، ولكن شعره يحدثنا أنه كان خفيف العارضين حيث يقول :

لاتغرنك اللحى من أناس درجوا كالحمير تحت المخالى
رلتز خف عارضاى فانى لا أبالى بكل واف السبال

يلبس على رأسه عمامة كالتاج ، وذلك كل ما تستطيع أن تصل إليه إذا أردت أن تعرف شيئا عن خلقته وزيه ، فاذا أردت أن تدرس أسرته وأن تعرف شيئا عن أبيه وأمه فانك غير مهتد إلى ما يشفى غليلك ، اللهم إلا أنه يرجع فى نسبه الاول إلى قبيلة عربية هى قبيلة لخم إن صح مايقوله النسابون عن نسبه .